مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد5 / العـدد:2 (2021)، ص 19– 34

تمظهرات مخاطبة الذّات الإلهية في شعر أبو مدين شعيب.

Menifestations of Addressing the Divine self in the Poetry of Abu Madyan Shuaib

ط/د : مسعودان محمـد[1]
جامعة أحمد الونشريسي بتيسمسيلت
مخبر الدّراسات النقدية والأدبية المعاصرة
mohamed.messaoudene@cuniv-tissemsilt.dz
د/قـردان الميلـود[2]
mouloudradwane@hotmail.com
جامعة أحمد الونشريسي بتيسمسيلت
مخبر الدّراسات النقدية والأدبية المعاصرة

تاريخ الاستلام: 09 /2021/10 تاريخ القبول: 2021/12/06

ملخص:

أفرد الصّوفيون مساحات واسعة في أشعارهم لموضوع الخطاب الإلهي، بوصفه رافدا مهما من روافد علم التصوّف، ذلك أن التصوف أجلّ أنواع السّلوك الّتي يتوجب على المؤمن اتباعها، حيث يحمل في طيّاته دلالة ترمـز إلى محتوى ديني هي أقرب طريق إلى الله والتّعرف على ذاته، و لا يكـون ذلك إلا بالعمل على ما يرضيه ، والتّكفير عن أيّ خطايا، فتسمو بذلك أرواحهم عن كلّ دنيّة ، وتطمح بالفوز العظيم من ربَّ البريّة، فهو أفضل محبوب، وأعظم مرغوب، وقد لمعت أسماء عجيبة في الخطاب الصوّفي الجزائري القديم ، ومن هؤلاء أبي مدين شعيب الّذي أثّر تأثيرًا كبيرا في التراث الصوفي اللاحق، فهو شيخ مشايخ الإسلام والأولياء، الذي لقب بالغوث لعلو مكانته في علم القوم.

الكلمات المفتاحية : الصّوفية؛ الخطاب؛الخطاب الصّوفي الجزائري؛ الذّات الإلهية؛ أبو مدين شعيب

Abstract:

The Sufis singled out large areas in their poems for the subject of divine discourse because they considered it as the principle of Sufism. This discourse is the most crucial kinds of behavior that the believers must follow; as it carries a sign that symbolizes a religious content that is the closest path to Allah, and getting to know him by working on what pleases him, and atonement for any sins. Their souls transcend from every wordly life, and aspire to the great victory from the lord of creation. Allah is the best loved, and the greatest desired. Amazing names have shined in the old Algerian Sufi discourse, and among these is Abu Madyan Shuaib, who had a great influence on the Sufism' generations. He is the sheikh of the sheikhs of Islam and the saints, the pole of the circle, and the man of the first and the hereafter.

key words:

Sufism ; Discourse ; Algerian Sufi Discourse ; The Divine Essence ; Abu Madyan Shuaib

يعدُّ الشّعر الصّوفي أحد الألوان التي يزخر بها التّراث الشّعري العربي، الّذي عَرَفَ رُوادا من الشّعراء المتصوفة لا يستهان بإنتاجهم الفكري في ميدان التّصوّف، ومن هؤلاء أبي مدين الغوث الّذي يعتبر رائداً من رواد التّصوف في المغرب العربي، ومن الأوائل الّذين أسهموا في إثراء الساحة الأدبية بإنتاجه الشّعري البديع، وتسهيلا لهذا العمل اخترت بعض الأبيات واعتمدت فيها على المستوى التركيبي للكشف عن بعض الظواهر، وإبراز الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالذّات البشرية وهنا نطرح السؤال الجوهري، كيف يتجلى الخطاب الإلهي في أشعار أبي مدين شعيب ؟ وما الطّريقة المستخدمة لخطاب الذّات الإلهية؟ ولكن قبل الحديث عن الغوث التلمساني ومخاطبته للذّات الإلهية وما يزخر به شعره من أدوات فنّية لها طابعها الخاص، أجد نفسي ملزماً على الحديث عن الخطاب وأنواعه بما فيه الخطاب الصّوفي وما يميزه عن باقي الخطابات .

1 • الخطـــاب

يوصف الخطاب بأنّه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي، نتيجتها مجموعة من العلامات، أو

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد5 / العـدد:2 (2021)، ص 19– 34

يوصف بأنّه مساق من العلاقات المتعينة الّتي تستخدم لتحقيق أغراض متعينة[1]

وتحمل لفظة الخطاب مفاهيم متعددة تُستخدم في مجالات عدّة وذلك راجع إلى المكان أو الظرف الّذي ينتج فيه هذا الخطاب وما له علاقة مباشرة بهذا المفهوم واستخدامه وأهمّها :

1•1 الخطاب القرآني

يتميز هذا الخطاب كونه ربانيا منزّلا على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بنسج أعجز الفصحاء والبلغاء، فجاء ظاهر على كلّ الخطابات، لا يجاريه أرباب اللّغة والبيان مهما بلغوا من الفصاحة والبلاغة، ومهما أعطوا من ملكة في الشّعر والخطابة، فهو يحمل بين كلماته جلالة وجمالاً من الله ، يعالج كل الموضوعات في حياة الفرد والمجتمع ، وهو مجموع المعاني الّتي يخاطب بها المولى– عزّ وجلّ – عباده بالأمر والنهي، والوعد والوعيد وذكر القصص ممّا سبق من الأمم الغابرة ، وداخل هذا الخطاب تتنوع أغراضه ، فالخطاب في القرآن الكريم على وجوه كثيرة ذكر منها الزّركشي ثلاثة وثلاثين وجها[2] نذكر منها :

أ – **خطاب العام والمراد به العموم** : كقوله تعالى : ﴿ إنّ الله بِكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾[3]

ب – **خطاب العام والمراد به الخصوص** : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كما آمن السُّفهاء ألا إنّهم هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يعَمُونَ ﴾ [4] يعني عبد الله بن سلام .

ج – **خطاب الخاص والمراد به الخصوص** :﴿ يا أيها الرَّسُولُ بلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[5]

د– **خطاب الخاص والمراد به العموم** : ﴿ يا أيّها النّبي إنّا أحللنا لك أزواجك ﴾[6] كان ابتداء الخطاب له ، فلما قال في الموهوبة ﴿ خَالِصَةً لك ﴾ لا تحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئا وقال الزهري : لا تحل الهبة لأحد بعد رسول الله عليه الصّلاة والسّلام[7].

ر– **خطاب الجنس**:﴿ يا أيّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[8] والمراد جنس الناس والمعلوم أنّ غير المكلف لم يدخل تحت هذا الخطاب ، وهذا يغلب في خطاب أهل مكة.

ز – **خطاب النوع** : ﴿ يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإيّاي فَارْهَبُو ن ﴾[9] والمراد بهم بنو النبي يعقوب عليه السّلام .

م – **خطاب العين** : ﴿ وَإِذْ قَالَ الله يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ الله ﴾[10] ولم يقع في الخطاب القرآني ذكرا لسيدنا محمد عليه الصّلاة والسّلام إلاّ ﴿ يا أيّها النّبي ﴾ أو ﴿ يا

أيّها الرّسُولُ ﴾ لمكانه عنده صلى الله عليه وسلم وتشريفا لقدره وتعظيما له وتنبيها لأيته أن يحسنوا الأدب معه في حياته وبعد مماته.

1 • 2 الخطاب الأدبي

يختلف الخطاب الأدبي عن باقي الخطابات كونه يفسر ذاته بذاته دون مرجع فهو كما يقول عبد السّلام مسدي:« انقطاع وظيفته المرجعية ، لأنه لا يرجعنا إلى شيء ولا يبلغنا أمرا خارجيا وإنّما هو يبلغ ذاته، وذاته في المرجع والمنقول في نفس الوقت ، وأمّا كف النص عن أن يقول شيئا عن شيء إثباتاً أو نفيا فإنه غدا هو نفسه قائلا ومقولا وأصبح الخطاب الأدبي من مقولات الحداثة التي تدك تبويب أرسطو للمقولات مطلقا»[11]

بمعنى أنه ينشأ حيث بدأ باكتساب مرجعيته وذاته. ومميزات الخطاب الأدبي عند عبد السّلام مسدي أنّه « يقوم على خصائص جمالية وأسلوبية وبنيوية وظيفية متنوعة ، استثمار الأدلة الصوتية في السياق الشّعري للخطاب الأدبي وعبر هذه الخاصة تتشكل رمزية الأصوات ويتحدد الإيقاع بين الطويل والقصير والبطيء والسريع والإيجابية والسلبية »[12]

فقد بين لنا مرتكزات الخطاب والمميزات التي تجعله يكتسي حلة ذاتية من خلال تفاعل عناصره في سياقاته المختلفة.

1 • 3 الخطاب الصّوفي

يتميز الخطاب الصّوفي عن باقي الخطابات الأخرى بغموض في المصطلح والمفاهيم بحكم التّجربة وعدم الشّرعية في التبني، والقلة من القرّاء الّذين يستطعون فهم النّص الصّوفي كونه يكتسي أبعادا مزدوجة بين ما هو خطاب إنساني محض، وما هو إلهي متجلي على السطح حيث البنية الشكلية ظاهرة في هذا الخطاب الإلهي أين يظهر فيه « الصّوت المسيطر على النّص الصّوفي ويأخذ في الغالب الأعم صبغة الخطاب القرآني، ويتشح بنغمة ذات قداسة »[13]، وقد تضمن الخطاب الصّوفي أشكالاً تعبيرية متعددة من خلال قصص وحكايات وكرامات وأدعية ومناجاة وأذكار مأثورة، فالخطاب الصّوفي ما هو إلا شكل من أشكال التعبير اللّغوي عن تجارب عرفانية ووجدانية، كما أنه ضرب من الكتابة الإبداعية له خصوصياته الفنية والجمالية التي تثبت له بما لا يدع مجالا للشّك انتماءه الأدبي بغض النظر عن خلفياته الدينية وتوجهاته الإيديولوجية ومضامينه الفلسفية[14] ، فهو يدخل في باب تعالق كل الكيان الوجودي لهذا

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد5 / العـدد:2 (2021)، ص 19– 34

المتصوّف روحا ونفسا وجسدا بالمجاهدة والتّعلق بالذّات الإلهية الواجبة الوجود والهدف وراء كسب المعرفة .

إنّ جوهر أهل التّصوّف وهدفهم الأسمى هو الله فقط، وشعارهم الأبدي هو "لا مقصود إلاّ الله" تلك الحقيقة المطلقة الّتي يتشوقون للاتصال بها والوصول إليها، ولا يتم ذلك إلا بشروط يتّصف بها أصحاب هذا الفن، وعلى هذا الأساس وضع المتصوفّة أنفسهم في المكانة الأعلى بين الناس ، ونسبوا لأنفسهم صفات قلّ نظيرها بين البشر ، فهم الأغنى بالرغم من أنهم لا يملكون شيئاً ، وهم الأقوى بالرغم من أنهم كانوا أضعف من أن يدافعوا عن أنفسهم ، وكانوا يستبشرون خيراً بأنهم هم الفئة المسلمة الوحيدة التي حازت على رضا الله ، فقد رضي الله عنهم وأحبّهم ، وأخلصوا هم من جانبهم لله ، وعبدوه عبادة خالصة ، وتنكروا للدّنيا وما فيها من شهوات ، واعتزلوا الدّنيا بكل ما فيها من مغريات ، ولم يكن لهم فيها أي مطلب، وهذا ما دفع الغزالي ليصفهم بصفات قلّ أن تجدها بين الناس «... وما صدر من أقوال عن شيوخ الصّوفيّة يبيّن لنا أنّهم ما سلكوا هذا الطريق إلاّ عن قناعة، ولم يقولوا كلمة لم يكونوا غير مقتنعين بها.»[15] فأصحاب هذاالعلم الإلهي– وأبو مدين شعيب واحد من هؤلاء– يتجوَّلون في مدارات الوجود والمعرفة والحياة والفكر بشكل حرٍّ وثابت؛ فهم الأحرار حقاً في كل زمان ومكان، وفي كل دوائر الحياة اليومية، وعلى صعيد التاريخ الإنساني، فالكون عند الصّوفية شاهد على الله تعالى، وينطق بذلك بألف لسان ولسان .

2 • ترجمة لشخصية أبي مدين شعيب

2 • 1 مولده ونسبه

هو القطب الرّباني إمام العباد، وشيخ مشايخ الإسلام في عصره سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الأصل من ناحية إشبيلية ومن حصن قطنيانة، وُلد في العقد الثاني من القرن السّادس هجري عـام (520هـ- 1126م)[16] واسم والدته فاطمة بنت أحمد ابن عبد الله بن مدين بن شعيب المدينة، لقب بالغوث وهي رتبة صوفية تقل عن القطب وتزيد على الأخيار والأوتاد. ويذكر الإمام ابن عربي أحد أقطاب التّصوّف أنّ أبا مدين تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات، والقطبية للعارف منتهي

آماله، وابن عربي أحد تلاميذ أبي مدين كان متأثراً أيّما تأثر إذْ لا يخلو كتاب من كتبه من ذكر مناقبه، كما كان يضعه في منزلة يعزُّ بلوغها ويلقبه شيخ الشيوخ .[17]

2 • 2 نشأته

نشأ يتيماً وفي أسرة فقيرة ،كل ما تملكه من تراث هو العلم والتّدين، وهذه هي المكونات الأولى لشخصيته، فعن محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري* ، قال: « سمعت أبا مدين يحدث ببدء أمره ويقول: كنت يتيماً، فجعلني إخوتي راعياً لهم لمواشيهم، فإذا رأيت من يصلي أو من يقرأ القرآن أعجبني ودنوت منه، وأجد في نفسي غماً لأنني لا أحفظ شيئاً من القرآن، ولا أعرف كيف أصلي، فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والصّلاة... » [18]

2 • 3 طلبه للعلم

اتّجه أبو مدين إلى المغرب وبالضبط إلى " فاس" بعد خروجه من الأندلس، وكانت هذه المدينة هي الوجهة الأولى ، كما كانت للشيخ وجهة أخرى إلى المشرق، والقصد من كل هذه الرحلات، طلب العلم بالدرجة الأولى، وكذا معرفة الله، لكي يروي عطشه الفكري، ويزود عقله بالعلم والمعرفة، وحكى بنفسه فقال: «...فتوجهت إليها- أي فاس— ولزمت جامعها فتعلمت الوضوء والصّلاة، وكنت أجلس إلى حلق الفقهاء والمذكرين فلا أثبت على شيء من كلامهم إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي، فسألت من هو؟ فقيل: ‘‘أبو الحسن بن حرزهم,, فأخبرته أنّي لا أحفظ إلاّ ما سمعته عنه خاصة، فقال لي: « هؤلاء يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان، وقصدت الله بكلامي فيخرج من القلب ويدخل القلب. »[19]

تأثر أبو مدين بأبي الحسن تأثرا كبيرا، فلازمه مدة من الزمن في فاس، وانكبّ على تحصيل العلوم والمعارف منه في أوقات دروسه، وفي نفس الوقت أخذ يعمل ناسخا للكتاب لدى الناسخين حتى يحصل على ما يعيل به نفسه، ويقيم أوده، ويصلح شؤونه المادية، فبقي الشيخ ملازما ومثابرا في طلب العلم حتى توفي شيخه ابن حرزهم، كما درس الشّيخ علوما أخرى على أبي الحسن بن غالب حتى توفي هو الآخر، تاقت نفسه لرؤية الشيخ أبي يعزي والّذي قال عنه أبو مدين: « كانت أخباره ترد علي، وكراماته يتداولها النّاس، وتنقل إلي، فملأ قلبي حبه فقصدته مع جماعة الفقراء ».[20] ، وهكذا كان الشّيخ أبو مدين يتردد إلى مجالس العلماء في مدينة فاس، حتى فتح الله عليه بالمواهب العليّة والأسرار الربّانية، وحقق التّوجه

والعمل، وبلغ مقامه الأمل، وبعد إقامة طويلة بفاس وتحصل فيها على ما يريده من علوم الظاهر والباطن من شيوخه الأجلاء، تاقت نفسه لأداء فريضة الحجّ وزيارة بيت الله الحرام وقبر الرسول محمد عليه الصّلاة والسّلام،وعندما وصل إلى الحجاز التقى بالشّيخ أبي صالح"عبد القادر الجيلاني"أو" الكيلاني"بجبل عرفات وتعرف عليه، وكان ذلك ما بين سنة (550 هـ –555هـ)، وهذا حسب رواية يحي بوعزيز[21] وبعد اتصاله به، لازمه الشّيخ أبو مدين بعض الوقت في الحرم الشّريف بمكة، ودرس عنه علم الحديث، وعلم التّصوّف، وأودعه كثيرا من أسراره، وحلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الكبار، فضلا أنه قد أخذ عن أعلام العلماء واستفاد من الزّهاد والأولياء، وكانت هذه الرحلة قد دامت أكثر من عقدين من الزمن [22]

2 • 4 مؤلفاته:

خلف أبو مدين باعتباره شيخ المشايخ وإمام عصره، العديد من الآثار، تمثلت في مجموعة من المؤلفات وبعض الرّسائل، إضافة إلى نظم وقصائد شعرية، وحكم، نذكر أهمّها:

– **ديوان أبي مدين:** جمع المعروف من شعر أبي مدين التلمساني من طرف العربي بن مصطفى الشوار التلمساني،وقام بنشره نجله محمد بن العربي بمطبعة الترقي بدمشق سنة 1938م.[23]

–**رسالة في التّصوف** :محفوظة تحت رقم 1810 ، وبها رسالة اسمها حكم أبي مدين، وهي الأخرى محفوظة تحت رقم 613 [24]، وفيما يخصُّ النظم والقصائد تمثلت في مايلي:

– قصيدة الجوهر (باريس 5320 ، مقصورة الجوهر 1476 هـ) .

– استغفار منظوم (8832 برلين) .

2 • 5 وفـــاتـــه

بالرغم ممّا حظي به الشّيخ من جلال ووقار عند العامة والخاصة ،إلاّ أنّه لم يسلم من أصحاب القلوب المريضة الّتي غشيتها الأحقاد أن يسعوا به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، فأمر السّلطان والي بجاية أن يحمله إليه خير محمل، فلما أخذ في السّفر شقّ على أصحابه وتغيروا وتكلموا معه فسكتهم، قال لهم: « شعيب شيخ كبير ضعيف لا قوة له للمشي، ومنيته قدرت بغير هذا المكان، ولا بدّ للوصول إلى موضع المنية، فقيض الله لي من يحملني إلى مكان الدّفن برفق، ويسوقني إلى مرام المقادير أحسن سوق، والقوم لا

أراهم ولا يروني، فطابت نفوسهم وذهب عنهم بأسهم، وارتحل به إلى أن وصل إلى تلمسان، فلمّا رأى العباد قال لرفقائه: ما يقال لهذا المكان؟ ..فقيل له: العباد..فقال مليح للرقاد..» [25]

قد أجمعت جلّ المصادر والمراجع ونذكر بعضها: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصّلحاء بفاس لجعفر بن إدريس الكتّاني، وأنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني، وتلمسان في العهد الزّياني لعبد العزيز فيلالي، والأعلام لزركلي، غيرها أنّ تاريخ ومكان وفاة أبي مدين – رحمه الله– كان سنة أربع وتسعين وخمسمائة 594 هـ، فحمل إلى العباد مدفن الأولياء الأوتاد، وسمع أهل تلمسان بجنازته، فكانت من المشاهد العظيمة، والمحافل الكريمة. وقبل وفاته مسيرة الشّيخ كانت جهادا في سبيل الله ضدّ الحملات الصّليبية، فقد انظّم في صفوف جيش صلاح الدّين الأيوبي لتحرير بيت المقدس، وبترت ذراعه ودفنت في القدس الشّريف بعدها كانت مساره ضدّ الجهل الّذي كان يعم أقطار العالم الإسلامي[26].

إنّ أسمى ما يسعى إليه الصّوفي ويحقّق له الاستقرار، ويجلب له السّعادة، هو معرفة الله تعالى معرفة خالصة، منزّهة عن كلّ شيء، لأنّ الذّات الإلهية هي رمز السّمو والكمال، وحتى يحقّق ذلك،لا بدّ له من المعرفة « اتّفقت جمهرة الصّوفية على أنّ غاية التّصوّف العليا هي الوصول إلى الله، والاتصال به، والفناء فيه، والتّحقق بمعرفته. ولكي يتحقق الصّوفي بهذه الغاية فلا بدّمن أن يقطع طريقا تتعاقب فيها على نفسه سلسلة من المراتب الّتي يختلف بعضها عن بعض من وجه، ويختلط بعضها مع بعض من وجه آخر، وتعرف هذه المراتب عندهم باسم المقامات؛ ... » [27]

3 • المستوي التركيبي في شعر أبي مدين الغوث

إنّ براعة أبي مدين واضحة من خلال تنويعه للأساليب من أجل التعبير عن أفكاره ومعانيه الصّوفية، فقد تمكّن من اختيار التراكيب اللّغوية الّتي بمقدورها إبراز الّطاقات الإيحائية لمفرداته، الّتي تنبثق عن تجربته الصّوفية، فيدفعه ذلك إلى اختيار معين لأنماط تراكيبه على مستوى الكلمة أو الجملة أو الأداة ، فزاوج في توظيفه بين الجمل الاسمية والفعلية، بدقّة محكمة كشفت عن تذوقه الأدبي وحاسته الفنّية وملكته التّعبيرية، أكسبت الخطاب الصّوفي تعددية في السّياق،وهذا الّذي حرص عليه الشعراء الصّوفيون.

أ • تركيب الجملة الاسمية

لا يبلغ الكلام غايته، ولا يتحقق التّواصل إلاّ بالجمل التّامة الّتي « تعبر عن أبسط الصّور الذهنية الّتي يصح السكوت عليها»[28] على حدّ تعبير الأستاذ مهدي المخزومي، وقصائد الغوث التلمساني غزيرة

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد5 / العـدد:2 (2021)، ص 19– 34

بأنماط الجمل، وسنفتتح دراستنا بالأبيات الآتية الّتي هي دعاء ورجاء ، كما افتتح بها الإمام محمود عبد الحليم كتابه أبو مدين الغوث .[البسيــط]

يا من إليـه جميـع الخلـق يبتهـل ... وكـلُّ حيّ على رحمــاه يــتّكل
يا من عَلا فرَأى ما فِي الْقُلوبِ وما ... تحت الثَّرى، و ظَلام اللَّيلِ منسدِل
يا من دنـا وتعالى أنْ يحيط به ... أبصارُ ذي العقل والأوهام والعللُ
أنت المغيث لمن ضاقت مذاهبه ... أنت الدّليل لمن سدّت به السبـلُ
أنت الكريـم أنا للذنب مكتسب ... وأنت ملجأ من ضاقت به الحيّـلُ
أنت المنادى به في كلّ ناحيـة ... أنت الإله وأنت الذُّخر والأمـلُ
إنّا قصـدناك والآمـال واثقــة ... والكـلُّ يدعـوك ملهوف ومبتهـلُ
فإن عفـوت فـذو فضل وذو كـرم ... وإنْ سطـوت فأنت الحاكم العــدلُ [29]

إنّ الدّارس لشعر أبي مدين يلاحظ أنّ الجمل الاسمية حاضرة بقوة في بعض قصائده وخاصة في نهايتها، فهذه المقطوعة ابتدأت بنداء في الأبيات الثلاث الأولى، ليعقبها بجمل اسمية في نهايتها هي(ظلام اللّيل منسدل) و (والأوهام والعلل) عدا البيت الأول الّذي انتهى صدره وعجزه بالفعل المضارع [يبتهل ويتّكل]، لتتوالى بعد ذلك الجمل الاسمية (أنت المغيث، أنت الدّليل،أنت الكريم،أنت ملجأ،أنت المنادى،أنت الإله، إنّا قصدناك، الآمال واثقة، الكلّ يدعوك...)، فالاستجابة متعلقة بالله تعالى متوقفة عليه لا غير، فقد أكّد في صدر البيت – إنّا قصدناك– بإنّ مرة ، وبالفاعل الضمير مرة أخرى الّذي كان له دور فعّال في تأكيد المعنى، باعتبار أنّ الفاعل هو العمدة في الكلام، من أجل هذا كثرت الجمل الاسمية، والاسم خال من الزمن والحدث معاً، « ولأنّ الاسم يخلو من الزّمن ويصلح للدّلالة على عدم تجدّد الحدث وإعطائه لوناً من الثّبات، يلجأ إليه في التّعبير عن الحالات الّتي تحتاج إلى توصيف وتثبيت »[30]، فالجمل الاسمية في هذه المقطوعة تحمل نوعا من التّوكيد، فالشاعر متعلق بالله تعالى،فقد ناجاه بأسمائه الحسنى، موقن باستجابة الله له، إنّي قريب أجيب دعوة الدّاعي،ولا تتحقق هذه الاستجابة، إلاّ أن

يكون خاضعاً متذللاً له، معلقاً آماله به، لا ملجأ ولا مهرب إلاّ إليه، كلّ هذه المعاني تتناسب مع تلك الصّيغ الاسميّة .فالأسماء بكلّ أنواعها، قد جاوزت الأربعين اسماً، والأفعال في كامل الأبيات لم تتعدّ أربعة عشرة فعلاً، كما كان اختتام صدور الأبيات وأعجازها بأسماء، سوى البيت الأول- كما ذكرنا سابقا- وقد تنوعت الأسماء بين الصّفة والإضافة والحال والمعطوف والمبتدأ المؤخّر والخبر لناسخ أو لمبتدأ وغيرها..، فأبو مدين أراد إبقاء غلبة النظام الاسمي على أبياته، وبالتّالي خرج على ما ألفه الشّعراء القدامى في كونهم « يجنحون للتّعامل مع النّظام الاسمي أكثر من جنوحهم للتّعامل مع النّظام الفعلي لأسباب مختلفة منها: أنّ نسج الأسلوب العربي ينهض أساساً على النّظام الاسميّ، أكثر من نهوضه على النّظام الفعلي وهو قادرٌ على الاستغناء عن الفعل من حيث لا يستطيع الاستغناء عن الاسم» [31] ، وأغلب الجمل الاسمية ورد فيها المبتدأ ضمير رفع منفصل[أنت] ومرة واحدة جاء بلفظة [أنا] ، أمّا الخبر فأغلبه مفرد، فالصياغة في مثل هذه التراكيب تأخذ طابعاً رأسياً يعمل على الوصول بالدّلالة إلى أبعاد عميقة .

ونلاحظ في مقطّعة أخرى، مخاطبة أبو مدين للذّات الإلهية، وهي تمثل بعد الحضور، كثافة الأسماء كذلك، مبتدئة باسم الجلالة ومنتهية به أيضاً، ليعقب في البيت الثاني بإضافة لفظة الذّات إلى الله عزّ وجلّ،لا على أنّ ذات صفة له، لينتهي في نهاية العجز بضمير يعود على الله تعالى يقول : **[** الكامل **]**

الله ربّـي لا أريـــد ســواه هـــل في الوجـــود الحيّ إلاّ الله

ذات الإلــه بها قـــوام ذواتنا هــل كـــان يوجد غيـــره لـــولاه [32]

فبعد الحضور في هذين البيتين، يتجلّى في تصوّر أبي مدين شعيب، وإيمانه الرّاسخ بالله تعالى أنّه هو المعبود لا غير،فاستخدام الشاعر الملفوظات **[** الله ربّي، لا أريد سواه،إلاّ الله، بها قوام ذواتنا، هل كان يوجد غيره **]** ليرسم صورة حيّة ناطقة عن عقيدته بالله المتميزة بالإيمان والصّفاء والنقاء،« للكون والوجود على أنّه واحد لا ثاني له، فالواصل الفاني عن ذاته القائم بذات غيره، يوحّد ولا يعدّد ويفرد ولا يثنّي، لأنّه في حال شهوده لا يرى إلاّ وجوده، وكلّ ما خلا الله باطل، فمن لا وجود كذاته لا وجود له على الحقيقة ».[33] ونؤكّد هنا أنّ الخطوة الأولى لتذوق الأشعار الصّوفية فنياً إنّما تقوم أساساً على فهم العلاقات اللّغوية وتتبع دلالاتها الجمالية، وهذا كفيل بأن يفتح أمام القارئ آفاق الصّور الفنية الّتي أرادها الشاعر بما يضعه بين يديه من دلالات ومعالم تبين دقائق الصّور.

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد5 / العـدد:2 (2021)، ص 19– 34

ب • تركيب الجملة الفعلية

الجملة الفعلية دعامة أساسية في النّظام اللّغوي، وأبو مدين استخدم أنظمة مختلفة تكاد تكون منوعة،على حسب الأحوال الّتي يعبرعنها، وذلك من خلال استخدامه للأفعال الماضية [علا–رأى– دنا– تعالى– ضاقت– قصدناك–عفوت–سطوت] والأفعال المضارعة [يبتهل– يتّكل– يحيط– يدعوك]، فلا يمكن الاستغناء عن الأفعال باعتبارها قطب الرحى إذْ أنّ« غياب الفعل خاصّة يجرّد الصّرح اللّغوي من الأساس الّذي يدعمه»[34] وأبو مدين في تعبيره عن تلك المخاطبة يتنقل بينها في توصيفها إلى الفعل لأنّ « القيمة المعنوية للفعل تنبعث من كونه كلمة يدخل فيها عنصر الزّمن، ولأنّ (هذا العنصر) داخلٌ في الفعل فهو ينبعث في الذهن عند النّطق بالفعل، وليس كذلك الاسم الذي يعطي معنى جامداً ثابتا لا تتحدّد خلاله الصّيغة المراد إثباتها» [35]

ولعلّ هذا الاستعمال للأفعال الماضية على حساب الأفعال المضارعة، وعدم استخدام أفعال الأمر، توحي بعمق الفكرة لدى الغوث التلمساني الّذي حاول من خلال هذه الأفعال العبور من ظاهر القصيدة إلى باطنها عبر تعبير الدّلالة الزمنية، والانتقال من سياقات إلى سياقات أخرى والموافقة لتجربة الشاعر في هذا الميدان، لهذا نجد أنّ أبا مدين يورد الأفعال الماضية الدّالة على القيام بالفعل فلجوءه إليها يوحي إلى المتلقي بأنّه قطع شوطا في هذه الحياة بدءاً بإثبات العلو لله الّذي يخصه هو وحده بالفعل[علا] وقدرته على الاطّلاع على الخلق، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء بالفعل[رأى] ونزول الحق من قدس ذاته ليدنو من خلقه –تنزّه عن ذلك– وهو المتعالي بالفعلين [دنا وتعالى] ليغفر ويعفو ويرحم وما على الخلق إلاّ الدعاء والرّجاء الّذي هو حال الضعفاء، لأنّ الله هو المغيث والمحسن لعباده، وهو يقدم لخلقه كلّ ما يحتاجون إليه دون أن يكون له حاجة للنّاس ، ويجب على الإنسان أن يدرك أفضال الله عليه ويتوجّه إليه بكل قلبه، والتفرّغ لعبادته، والرّضى بما يقضي ويحكم ، بما عبر عنه بالأفعال المتبقية .

وأمّا استعمال أبو مدين للأفعال المضارعة[يبتهل، يتّكل، يدعوك، يحفظ] ورغم علامة المضارعة إلاّ أنّ هذه الأفعال تدل من خلال السّياق الشّعري على حالة حاضرة، أي لا تُعبر عن الفعل الآني بالقدر الّذي تعبر عن المستقبل لحالة صوفية متأكدة ومستمرة، فورود الأفعال في أبيات أبي مدين على هذا النحو من التعدد والتركيز« يظهر التجدد في الحدث الصّوفي، مع الإشارة إلى استمرارية هذا الحدث، إذْ أنّ الفعل

المضارع يفيد معنى الاستمرار والامتداد وبذلك ينفذ الشاعر للتعبير عن الزمن الإلهي الممتد خلافاً للزمن البشري المحدود المتغير»[36]،ويدخل التركيب الشّرطي ضمن الجملة الفعلية أيضا، وقد وُجد في البيت الأخير.

وبنية الشّرط من الأبنية الأثيرة عند أبي مدين وهذا ما يمتاز به الشاعر الصّوفي إلى الرضى بما قدره الله للعبد، والشّرط من الأساليب المجدية لحد كبير من مسائل الرضى بقضاء الله وقدره والتّصوف لا سيما في هذا المجال، يدعو دوما إلى تطهير النّفس وتهذيبها، لتكون متأهلة وجديرة بمخاطبة الذّات الإلهية .

4 • الأســاليــب الإنشـائيـة

ينقسم الأسلوب الإنشائي إلى قسمين طلبي وغير طلبي، فالطّلبي هو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت طلب،« فقد قسّموه إلى تسعة أقسام: أمر،نهي،استفهام،ودعاء،وعرض،وتخصيص،وتمني، وترج، ونداء » [37]، ويتميز الأسلوب الإنشائي بحركة الدّلالة وحيويتها على عكس الأسلوب الخبري الّذي يتمُّ بثبات الدّلالة وجفافها، وبهذه الأساليب تتنامى حركية النّص وتنشط دلالته، ويصبح دور المتلقي دورا حيّاً في الكشف عن جماليات العمل الإبداعي، وقد استغلّ أبو مدين ما يمكن استغلاله من هذه الإمكانيات، ومن أبرز الأساليب دورانا عنده مايلي:

– أسلوب النداء:« النداء هو طلب المتكلم إقبال المخاطَب عليه بحرف نائب مناب'' أنادي'' المنقول من الخبر إلى الإنشاء وأدواته هي (الهمزة ، وأيّ ، ويا ، وآي ،وأيا، وهيا،و وا الندبة) وفي كيفية الاستعمال نوعان: الهمزة وأي: لنداء القريب، وباقي الأدوات لنداء البعيد»[38] والنداء كأسلوب أبعد من أن يحصر في هذا التعريف ،أو أن نقف بمفهومه عند هذه الحدود الضيقة، حيث « أصبحت أساليب النداء في دلالتها وجماليتها البلاغية رسالة كلامية،وعملا فنيًا في آنٍ معا، فالمتكلِّم ليس مجرد مرسلٍ لأدوات النداء،إنّما هي تعبير مثير عن مشاعره وأفكاره ومرتبِطٌة – في الوقت نفسه – بالمخاطَب قُرْبًا وبُعْداً في المكان أو المنزلة الذّاتية والاجتماعية »[39] لذا يقسم علماء البلاغة النداء باعتبار أدواته إلى نداء القريب، ونداء البعيد، في الوقت الّذي يمكن أن يترّل فيه البعيد مترلة القريب،والعكس صحيح أيضا وذلك كلّه لدوافع نفسيّة بلاغيّة، ومنه ينقسم النّداء إلى حقيقي ومجازي وهكذا .

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد5 / العـدد:2 (2021)، ص 19– 34

وعند تتبعنا لأسلوب النّداء في أبيات أبي مدين شعيب،اتّضح أنّ النداء الوارد في الأبيات الثّمانية جاء ثلاثُ مرات ونقدر نسبته بـ (37.50 %)، حيث جاءت فيه أداة النّداء (يا) الوحيدة – والّتي تأتي للقريب و البعيد معاً – في مستهل هذه الأسطر الشّعرية يلفت أبو مدين الانتباه بندائه الموجه إلى الذّات الإلهية بكلّ أوصافها، وقد عبر بندائه بعدة مواصفات تحيل في مجملها إلى ضعف المخلوق الأرضي وطمعه برحمة الخالق السّماوي .

إن جملة النداء التي تكررت في أبيات أبي مدين بأداة النداء" يا" تدل إمّا على الرّجاء والضعف والاستعطاف وطلب الرحمة مثل (جميع الخلق– يبتهل– كلُّ حيّ–على رحماك– يتّكل) أو على التعظيم لله بالألفاظ التّالية (علا– رأى ما في القلوب– تحت الثّرى– تعالى– أن يحيط به)، وينقل لنا الشّاعر عبر أسلوب النداء مجموعة من المدلولات التي تعمل على إثارة المتلقي بشكل واضح في مناجاته لله تعالى، وجاءت نداءاته كلَّها بحرف" الياء" حاملة العمق الجوهري للخطاب الإلهي، وهذا ليس غريباً على سالك طريق المناجاة أن يكثر النداء، فهو يرغب دائما في نداء الذّات الإلهية والتّوسل إليه والتّلذذ بذكره ، كما رسمت هذه النداءات تمام التفويض للخالق، وهي درجة عالية في التّوكل الّتي يؤول إليها كلُّ حيّ ليتوجّه إلى الله لأنّه هو الملجأ والملاذ والمنعم والمتفضل لخلقه ، كما نجد أبا مدين شعيب تأثر كغيره من الشعراء بالقرآن الكريم لما له من مكانة في نفس شاعرنا وضمنه شعره، وأكثر من الاقتباس فجاءت مناجاته لله تعالى فيها من اللّذة لا تعدلها لذة وأمل لا يدانيه أ مل ورجاء لا يعدله رجاء،فتستريح بذلك قلوب العارفين وتطمئن قلوب المخلصين، وفي هذا يقول الدكتور مختار حبار«...ذلك لأنّ الشاعر قد استهواه التّناغم العجيب الّذي صنعته سورة " مريم" في تركيبها بوجه عام، وفي فواصلها المنتهية بالياء الممدودة بوجه خاص، فما كان منه إلاّ أن يقلدها في بعض نسجها، ويأخذ منها بعض معانيها الشجية الموائمة لمعانيه الصّوفية الشّجية...»[40]

فمن أهمّ أبيات أبي مدين في قصيدته "" لست أنسى الأحباب "الّتي خاطب فيها الله تعالى وقد اخترنا منها هذه الأبيات حيث يقولُ: [**الخفيف**]

وأناجي الإلـــه مـــن فرط وجـــدي كمـــناجـــاة عبـــده زكريّـــا

الاقتباس من قوله تعالى: ﴿ **ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا** ﴾ [41]

وهــن العظـــم بالبــعـاد فهــب لـــي ربّ باللطـــف مــن لدنــك وليّـــا

الاقتباس من :﴿ **قال ربّ إنّي وهـن العظـم منّي** ﴾ و﴿ **فهــب لــي من لدنك وليّا** ﴾ [42]

واستجـب فـي الهــوى دعـائـي فـإنّـي لــم أكــن بالـدعـــاء ربّ شقيّـــا

الاقتباس من قوله تعالى: ﴿ **ولم أكن بدعائك ربّ شقيّا** ﴾ [43]

حاول أبو مدين التوحد بمضامين القرآن الكريم والتأدب بآدابه والتّمثل بمعانيه، لأنّه يحتل مكانة أرقى في بناء قصيدته الّتي سكب فيها على النّص القرآني رحيق الذوق الصّوفي بين لغة القرآن و لغة الشّعر، وانسجام الموضوع الشّعري بالمضمون القرآني، حيث أنّ « الدراسة لا تستقيم، إلاّ بقراءة التلمساني في إطار حقل العرفانية الصّوفية عموماً».[44]

ختاما ممّا سبق يمكن أن نخلص من خلال هذه الدّراسة للأبيات المنوعة للخطاب الإلهي، على قدرة أبي مدين على الخلق والإبداع وامتلاكه لوسائل فنية كشفت لنا عن البنيات التّعبيرية واللّغوية الّتي تشكل منها هذا الخطاب في بعديه الدّلالي والفنّي، نتج في الأصل عن براعة أبي مدين باعتباره مدرسة حقيقية في التّصوّف، ينهل منه العارفون والمريدون، فقد وصل إلى منتهى المنتهى من خلال قصائده الّتي عكست بصدق فرادة القصيدة الصّوفية الجزائرية، وبوأتها مكانة في التّراث العربي.

الهوامش

01 – ينظر، عصر البنيوية، إديت كريزويل، ترجمة، جابر عصفور،دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993م، ص379.

02 – ينظر : بدر الدين الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج 1 ، ص132

03 – سورة المجادلة : الآية 07 .

04 – سورة البقرة : الآية 13 .

05 – سورة المائدة : الآية 67 .

06 – سورة الأحزاب : الآية: 50 .

07 – ينظر : ابن أبي حاتم ، تفسير ابن أبي حاتم ، مصر 1389 هـ ، ج 4 ، ص482

08 – سورة البقرة : الآية 21 .

09 – سورة البقرة : الآية 40 .

10 – سورة المائدة : الآية 116 .

11 –.المعجم العربي الأساس : مجموعة من اللغويين العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1989، ص404

12 – عبد السلام مسدي : الأسلوبية والأسلوب ،الدار العربية للكتاب ، تونس) د ت (، ط 1 ، ص116 .

13 – يوسف زيدان : الموالیات دراسات في التصوف ، دار المصرية اللبنانية ، ط1 1998م ،ص 35 .

14 – سكينة زواغي : ملامح التصوف في الشعر العربي المعاصر، مجلة الخطاب الصوفي ، العدد1 ، جامعة الجزائر ، 2007 م ص263 .

15 – الغزالي ، المنقذ من الضلال ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط1 ، 1988 ، ص 62 .

16 – ينظر: ابن الزيات النادلي، التّشوق إلى رجال التّصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط2، 1997م، ص 319 .

17 – ينظر : ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، د . ط ، ص16 .

18 – نفس المرجع السابق ، ص 36 .

* – محمد بن إبراهيم الأنصاري :هو من أصحاب الشيخ أبي مدين، وهو من كبار تلامذته وكثير الرواية عنه.

19 – أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح :أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، بالرباط، ط 2 ،1979م، ص320 .

20 – أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح :إحسان عباس، دار صادر، بيروت، مجلد7 ، ص 138.

21 – يحي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ ويليه مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ويليه المساجد العتيقة، دار البصائر للنشر والتوزيع ،الجزائر،2006م، ص 66 .

22 – يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص،17 .

23 – عبد القادر سعود وسليمان القرشي، ديوان أبي مدين شعيب، بيروت، لبنان، ط 1، 2011م، ص 8 .

24 –العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تح :عبد الوهاب بن منصور، المصدر السابق، ج 10، ص، ص :.178

25 – الإمام محمود عبد الحليم،أبو مدين الغوث، دار المعارف، 1985م، ج . م . ع ، ص 142 .

26 – بتصرف،ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 184 .

27 – محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي، دار المعارف، ج – م – ع ،ط 2 ، ص 233 .

28 – مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد، بيروت، ط 3، 1986م، ص 31 .

29 – الإمام محمود عبد الحليم،أبو مدين الغوث، ص 07 .

30 – أماني سليمان داود : الأسلوبية وال صوفية،ص 72 ،نقلا عن سعد مصلوح ،دراسة السمع والكلام،ص 99 .

31 – عبد الملك مرتاض :السبع المعّلقات،(مقاربة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها)،اتحاد الكتاب العرب،دمشق ط1، 1998م، ص 168/167 .

32 – عبد القادر سعود و سليمان القرشي، ديوان أبي مدين شعيب الغوث،الطبعة الأولى،2011م،لبنان، ص43 .

33 – مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)،اتحاد كتاب العرب، 2002م، دمشق، ص82.

34 – جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: :محمد الولي ومحمد العمري .دار توبقال للنشر – المغرب .الطبعة الأولى، 1986م ، ص 178 .

35 – أماني سليمان داود : الأسلوبية والصوفية،ص. 102 نقلا عن" أحمد درويش:"دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتّراث، ص 151 .

36 – أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية، دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج، دار مهدلاوي، عمان، الأردن، ط 1، 2002 ، ص 104 .

37 – عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2001م، ص 14 .

38 – أحمد الهاشهي،جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط،يوسف الصميلي،المكتبة العصرية،بيروت،ص89.

39 – حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء(دراسة جمالية بلاغية نقدية)منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق2005 /180 . ،ص179 .

40 – مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)، ص 166 .

41 – سورة مريم : الآية: 02 .

42 – سورة مريم : الآية: 04 و05 .

43 – سورة مريم : الآية: 04 .

44 – مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا و التشكيل) ، ص21 .